الناحية الدينية

ليس فى وسع الباحثين أن يجدوا دليلاً قاطعاً على مبدأ التَـدَيُّن لدى العرب ولا أن يعرفوا عن نشأة الديانات التى شاعت بينهم ، ولا عن أطوارها شيئاً يطمئن الباحث الحديث إلى سلامته من الريب ، والحدس ، والظن ، والتخمين ومما لا ريب فيه أن عبادة " الكواكب " كانت من أقدم العقائد العربية ، واشتهر عرب الجنوب من اليمنيين بعبادة " الشمس " كما ورد فى قوله سبحانه فى الحديث عن ملكة سبأ " بلقيس " ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [سورة النمل:٢٤] وكانت عبادة القمر معروفة عند " عرب الشمال " من البدو الذين كانوا يعتمدون على الرّحلة بالليل ويهتدون بضوء القمر فى تلك المفاوز الموحشة وقد بقى فى الآداب والمعتقدات العربية ما يدل على مكانة " القمر " من بين معبوداتهم فى الجاهلية مثل تقليبه على " الشمس " وفى تثنية القمرين ، والاعتماد عليه فى الصيام والعدة ، والحج وعدد السنين والحساب .

وقد عبدوا "عُطارد" و"المشترى" **يقول تعالى** : ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [سورة النجم:الآية١] .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ ﴾ [سورة الطارق: الآيات١ :٤] .

يقول المفسرون ، " إن المراد بالنجم هو " عُطارد " ويذكر لنا " أبو المنذر بن السّائب الكلبىّ " وهو من مؤرخى العرب فى القرن الثانى الهجرى فى " كتاب الأصنام " إن أول عهد العرب بعبادة الأصنام كان بعد إقامة " خزاعة " بمكة وسيادتها على الحرم وأن " عمرو بن لحى " سيد " خزاعة " كان قد ارتحل إلى " البلقاء " من بلاد الشام ، ووجد أهلها يسجدون لهذه الأصنام ، فسألهم عنها " هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية لننتصر بها فدفعوا إليه " هُبل " وهو

أعظم أصنامهم ومن أشهر آلهتهم " اللات والعزى ومناة" وعداً أصنام وآلهة كثيرة تسموا بأسمائها ، وأضافوا أنفسهم إليها مثل " تيم اللات، وعبد يغوث ، وامرئ القيس ، وعبد شمس ، وعبد مناة " وقد نفى القرآن الكريم عليهم هذه العبادات فى كثرة كاثرة من الآيات القرآنية **منها قوله سبحانه :** ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة النجم: الآيات ١٩: ٢٠] **وقوله سبحانه:** ﴿ ...لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ... ﴾ [سورة فُصِّلَت:من الآية٣٧] وبعض الطوائف من العرب كانوا يعبدون "الملائكة والجن " **يقول عز وجل :** ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة سبأ:الآيات٤٠ :٤١].

ظهور الزندقة :

وقد رئى لأن قوماً من قريش كانوا يعتنقون الزّندقة وقد قبسوها من "الحيرة " وهذه الزندقة تقول بإلَهّين هما " إله النور " وهو أصل كل خير و" إله الظُلْمَة " وهو أصل كلّ شرّ[1] . وهناك قوم من العرب أنكروا الأديان كلها ، وأنكروا الخالق ، والبعث والإعادة ، وقالوا بالطبع المجى ، والدهر المعنى وهى مقولة الملاحدة والدهريون الذين يؤمنون بأن الدهر هو مهلكهم " ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع"[2] ويقول القرآن على ألسنتهم : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٣٦-٣٧]

وقوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ... ﴾

[سورة الجاثية:من الآية٢٤] .

اليهودية والنصرانية :

وقد انتشرت اليهودية ، والنصرانية فى الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وليس فى المصادر التاريخية ولا الأدبية ما يفاد منه تحديد الوقت الذى ظهرت فيه

1 - راجع المعارف لابن قتيبة الدينورى .
2 - بلوغ الأدب للألوس .

هذه الديانات فى بلاد العرب . بيد أن النصرانية التى كانت منتشرة فى بلاد "اليمن " وفى قبائل " تغلب ، وقضاعة ، وغسان " ويقول علماء الأدب العربى " ويظن أنها دخلت إلى بلاد العرب فى القرن الرابع الميلادى ، وذلك بنقل القساوسة، والبطارقة ، وإن كان العرب لم يعتنقوا المسيحية ، ولم يدينوا بها ، وقد تسرب إلى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت فرقتان كبيرتان من النصارى : وهما "النساطرة " وكانوا فى الحيرة و" اليعاقبة " فى " غسان " ، " الشام و" وقد اختلف المؤرخون فى أصل اليهود فبعض المؤرخين يقولون إنهم " عَرب " اعتنقوا اليهودية وبعضهم يقول " إنهم يهود هاجروا إلى بلاد العرب " **ويقول بعض المستشرقين** :

"إنّ اليهودية انتشرت قبل الإسلام بقرون كثيرة ، وأسست هذه مستعمرات يهودية ومن أشهرها " يثرب " وهى المدينة المنورة صلى الله على ساكنها سيدنا " محمد " وتسميتها جاءت بعد الاسم الذى كانت تسمى به من قبل ربعو " يثرب" وكان يهود يثرب ثلاث قبائل وهى " بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع " كما أن أهم موطن للنصرانية فى جزيرة العرب كان " نجران " وهى الآن من أعمال المملكة العربية السعودية ، بيد أنها فى الحقيقة " يمنية الأصل " وكذلك " جيزان " فهما مدينتان يمنيتان ونجران مدينة تمتاز بالخصوبة ، وهى قريبة من الطريق التجارى الذى يمتد إلى " الحيرة " ومباهلة النبى ﷺ لوفد " نجران " شهيرة .

يقول ياقوت الحموى: " فى معجم البلدان " " ووفد على النبى ﷺ وفد " نجران " وفيهم السيد واسمه " وهب " والعاقب " واسمه " عبد المسيح " والأسقف " وهو " أبو حارثة " وأراد النبى عليه الصلاةو السلام مباهلتهم فامتنعوا ، وصالحوا النبى ﷺ فكتب لهم كتاباً، فلما وَلِىَ " أبو بكر " رضي الله عنه أنفذ ذلك لهم فلما ولِىَ سيدنا " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه أخلاهم، واشترى منهم أموالهم .

فكرة التوحيد

ويرى الأستاذ " أحمد أمين " تابعاً في ذلك الأمر المستشرقين أن ظهور "التوحيد" في الجزيرة العربية لا يَبْدوَ أن يكون أثراً من آثار المسيحية ، أو اليهودية ويضيف إلى ذلك أن الأوطان السامية القديمة كانت المهد الأول للديانات الثلاث الكبرى التي ظهرت في التاريخ وهي النصرانية ، واليهودية ، والإسلام " .

ولا ندري أَهُم في جهالةٍ جهلاء ، وضلالةٍ عمياءْ ، أم أنهم يتجاهلون أن الله سبحانه وتعالى قد بعث إلى العرب أربعة من الرسل قبل ظهور هذه الديانات وهم " سيدنا " هود " عليه السلام وكان في قوم عاد الذين كَانوا يقيمون في الأحقاف وثانيهم سيدنا " صالح " عليه السلام، وكان في " ثمود " وكانت منازلهم بالحجر وكذلك سيدنا " شعيب " عليه السلام وكان في أهل " مدين " وإسماعيل " في العرب المستعربة .

وقد حكى " القرآن الكريم " شيئاً عن مدينتهم وتاريخهم . وليس من المعقول أن تكون الجزيرة قد تجردت من آثار وراثية لرسالات هذه الرسل التي كانت قائمةً على أساس الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ، وأنه ليس للخلق ولا للأرض والسماء إله غيره سبحانه وتعالى جلّ في علاه .

ظهور الحنفاء :

إنه من المؤكد أن هناك طبقة من الشعراء والكهان والأشراف قبل ظهور الإسلام قد فطنت وهديت بفطرتها إلى أن لهذا الكون إلهاً خلقه ، كما فطنت إلى أن الجمهرة العربية في غواية منكرة ، فدعت إلى ضرورة الخروج بالعقلية العربية عن هذا الدّرك من الانحطاط ، وذلك بنبذ عبادة الأصنام ، والتخلص من عادات الجاهلية مثل" وأد البنات ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر " وكان هؤلاء الحنفاء أو المتحنفين يدينون بالبعث ، ويؤمنون بالله وحده ، ويدعون إلى الحنيفية دين أبيهم " إبراهيم " عليه السلام وكان هؤلاء يسمون " التائبين أو الحنفاء " ومنهم على سبيل المثال لا الحصر " ورقة بن نوفل " و" قس بن ساعدة الإيادى " و" أمية

بن أبى الصلت " وقد سمع رسول الله ﷺ " قس بن ساعده الإيادى فى سوق " عكاظ " يخطب على جمل " اورق " يبشرهم برسول الله ﷺ وديـن جديد قد أظلهم أوانه ، وأدركهم إبانه وقال فيه رسول الله ﷺ : " يرحم الله قُسّاً إنى لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده " .

كما نرى جماعة من الوثنيين قد سئموا وثنيتهم ، وأحسوا قصورها من حاجتهم الروحية ، فمالوا إلى الشك ، والإباحة ورأوا فى الحياة مهزلة غير مفهومة من الواجب أن تقضى ف لهو ، ونعيم ، واستهتار ، **نجد ذلك فى شعر الشاعر "طرفة بن العبد البكرى "** :-

ألا بهـذا الزاجـرى أحـصر الـوغى
وأن أشهد اللـذات هـل أنـت مخلـدى

فـإن كنـت لا تـستطيع دفـع منيتـى
فدعنى أبادرهـا بمـا ملكـت يـدى

يقول :

متـى تـأتنى أصـحبك كأسـاً رويـة
وإن كنـت عنهـا داعنـى فعـن وازدد

كـريم يـروى نفـسه فـى حيـاته
ستعـلم إن متنـا غـداً أينـا الـصدى

فهذا شاعر قد استيأس من الحياة ، وشك فى الآخرة ووجد الخير فى اطراح الجبن ، والتعلق باللَّهو ، وما يتصل به وإذا تركنا الشاعر " طرفة بن العبد البكرى " الذى يئس تمام اليأس نجد وثنياً آخر هو الشاعر " زهير بن أبى سلمى المُزنى " يحس بقصور الديانات التى يراها أمامه فى الجزيرة العربية ، بيد أنه لا يطمئن إلى أن الحياة عبث ولهو ، أو أن العالم خُلق سُدى ، وشرع يفكر فى نهاية هذه الحياة ، متشبثاً بفكرة الآخرة **فتراه يقول** :

فـلا تكـتمن الله مـا فـى نفوسـكم لِيخفَى ومهمـا يكـتم الله يَعْلَـم
يؤخر فيوضـع فـى كتـاب فيـدخر ليوم الحـساب أو يعجـل فينـتقم

فهو إذاً مطمئن إلى شيء بعد الدنيا من " حساب وجزاء " ولكن هذه الفكرة لا تقوم عنده على بُرْهان عَقليّ ، أو بحث قوى ، أو رأى دينى . لذلك نجده بعد ذلك يعود إلى اضطرابه ، فيورد لأفكاره القديمة .

فيقول :

رأيت المنايا خبط عشواء من تُـصبْ تمته ومن تخطىء يعمـر فيهـرَمِ

فالموت لديه مصادفة ، ومعنى هذا اضطراب العرب أو مفكريهم أمام هذه الديانات التى تعرض نفسها عليهم ، ثم حيرتهم فى اختيار أحدها ، وفى أيهما أشد ملاءمة لهذه الحال التى وصلوا إليها من أطوار حياتهم البدوية ، فهم فى حاجة إلى الهداية ، والإرشاد أو إلى مثل دينى أعلى لإشباع هذه الشهوة الروحية الثائرة وفى هذا الوقت تنتظم القبائل العربية أسباب متظاهرة لنهضة اجتماعية ، وعقلية ظهرت طلائعها بالميل الشديد للوحدة العامة ، والاشتراك فى النفور من الحياة بأعباء الفوضى ، والانقسام .

الإرهاصات تسبق النبوة

وكان لأصحاب هذا المذهب الذى أومأنا إليه آنفاً وهم " طبقة الحنفاء " أو " المتحنفين " من الشعراء كثير الفضل ، وعظيم الأثر فى هذا التطّور السريع الذى أفضى بالأمة العربية إلى عدم الرضا بتلك الأديان الشائعة خاصة ، خاصة " الوثنية والرغبة الأكيدة فى النقلة إلى عهد من السلام ، والعرفان ينبعث الناس من خلاله فى معايشهم ، ووجوه منافعهم ، وهم فى حراسة الشرائع ، وحماية الأوضاع المهّذبة فكان ذلك إرْهَاصاً ، وتمهيداً صالحاً لظهور النبى المنتظر ألا وهو سيدنا محمد ﷺ